

العولمة و الاتصال

وهم التبادل الثقافي

د. مخلوف بوكروح

أستاذ محاضر

قسم علوم الإعلام و الاتصال

كلية العلوم السياسية و الإعلامية

- جامعة الجزائر -

تمهيد :

شهد العالم في النصف الثاني من القرن العشرين نقلة نوعية في مجال الإعلام والاتصال من خلال الاندماج الذي حصل بين تكنولوجيات الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيات الأقمار الصناعية، أدى هذا إلى إحداث طفرة نوعية في الاتصال العالمي بفضل الشبكة من الطرق المعلوماتية السريعة، حيث أصبح الناس يتواصلون فيما بينهم أيا كان موقعهم عبر أزرار لوحة مفاتيح الحاسوب. وقد دشّن هذا التطور عهدا جديدا يقوم على الاستخدام المكثف لتكنولوجيا المعلومات في استغلال مواردها الرئيسي وهو المعرفة. وأصبحت بذلك السيطرة على تداول وتدفق وتوزيع المعرفة والتوصل إليها محور الصراع في عصر ما بعد الحداثة على حد تعبير ألفين توفلر A. Toffler .

وقد أدى تطور تكنولوجيا الاتصال إلى إحداث تكامل بين مختلف الأنشطة الإبداعية للإنسان، وأصبحت "الموارد الذهنية والثقافية" المتمثلة في مجمل الإنتاج الثقافي للمجتمع سواء كان هذا الإنتاج في مجال العلوم والتكنولوجيا أم في مجال الفنون والآداب، وكذلك في أدوات هذا الإنتاج سواء تمثلت في أفراد مبدعين أو في مؤسسة الإبداع بشتى أنواعها من جامعات ومراكز بحوث ومؤسسات فنية وفكرية، هي المورد الرئيسي الذي يقوم عليه مجتمع حضارة الإعلام والمعلومات. في ظل هذه الوضعية التي أدت إلى ارتفاع وتيرة الإنتاج الثقافي وانتشاره بسرعة فائقة نتساءل عن حقيقة التبادل الثقافي الذي ينادي به البعض، هذا ما سنحاول التطرق إليه في هذه الورقة، ونستهلها بتحديد بعض مظاهر العولمة التي يسير في فلکها هذا التبادل.

مظاهر العولمة الثقافية:

يرى بعض المنظرين بأن العولمة ستؤدي إلى انصهار مختلف الاقتصاديات الوطنية والإقليمية في اقتصاد عالمي موحد، بعد أن أصبح العالم سوقا واحدة، وصارت التجارة العالمية تعرف نموا مطردا يستفيد منه الجميع، فضلا عن الدور الذي تلعبه الأقمار الصناعية وشبكة الأنترنت ومختلف أشكال الاتصالات في شتى مناحي الحياة. لكن الواقع لا يؤكد هذه المزاعم، فقد عرف العالم مع نمو العولمة تزايد تركيز الثروة واتساع الفروق بين البشر والدول اتساعا لا مثيل له. كل المؤشرات تؤكد على أن القرن الواحد والعشرين سيعرف تفاقم هذه الهوة، وسيؤدي إلى إحداث تباين صارخ في المجتمع الدولي وهذا ما تكشفه هذه الأرقام التي تبين أن 20% من السكان فقط الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش. أما النسبة الباقية (80%) فتمثل أغلبية السكان الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير. وكذلك الشأن بالنسبة للثروة فهناك 358 ملياردير في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه 2.5 مليار من سكان المعمورة، أي ما يزيد قليلا على نصف سكان العالم. وأن 20% من دول العالم تستحوذ على 85% من الناتج العالمي الإجمالي، وعلى 84% من التجارة العالمية. هذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة، حيث تسيطر قلة من السكان على الجزء الأكبر من الدخل الوطني والثروة القومية، في حين تعيش أغلبية السكان على الهامش. (1)

وعلى الرغم من المكانة التي يحتلها الاقتصاد في مجال العولمة، إلا أن مجال الاتصال يلعب هو الآخر دورا كبيرا في عولمة الكرة الأرضية وزاد من اتساع الفجوة بين الدول والشعوب. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هيمنة الدول الغربية في مجالي الاقتصاد والاتصال طالت الميدان الثقافي. والأخطر من ذلك أن العولمة في المجال الثقافي تتعدد مظاهرها لتطال اللغات وما تحمله من فكر وعلوم وآداب، وتمتد كذلك إلى الأشكال الملموسة كالمباني والمأكول وأنظمة الحياة العامة من قوانين وعمران وعادات وتقاليد. وقد أسهمت وسائل الاتصال الحديثة وغيرها من الوسائط في هذا الانتشار السريع للمنتجات الثقافية. ولعل القلق من العولمة في المجال الثقافي يأتي من الإحساس والخوف من الذوبان في الثقافة المسيطرة. وربما هذا ما يفسر في كثير من الأحيان ظهور أشكال من المقاومة الثقافية بغرض الحفاظ على الهوية الوطنية. (2)

على الرغم كذلك من أن الدول العظمى تستغل تفوقها العسكري والاقتصادي للهيمنة، إلا أن قوة الإعلام هي التي تضيء الشرعية على أشكال "هذا التفوق" على المستوى الكوكبي. ويعود السبب في ذلك إلى النمو غير المسبوق في وسائل انتشار المعرفة والتحكم فيها. ويجمع المتابعون على أن صعود الولايات المتحدة الأمريكية كقوة امبريالية يعود بشكل كبير إلى الإعلام، والتي ستزيد من قوتها وسيطرتها في ظل العولمة.

إن الهيمنة الثقافية في الحقيقة لا تختلف في جوهرها عن أشكال الهيمنة التقليدية إلا في شكلها واسلوها. ومن هنا فإن الدعوات التي ينادي بها البعض الرامية إلى انتشار الثقافة والمعرفة لكل شعوب العالم لا يمكن تحقيقها في الوضع الراهن. ذلك أن التعايش بين الشعوب يتوقف بالأساس على الإصغاء للآخر واحترام ثقافته الخاصة. ويمكن ملاحظة هذه الهيمنة وعدم احترام الدول الكبيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية فيما ألحقته بالتراث الثقافي والحضاري للعراق بعد الاحتلال، حيث عمدت إلى تخطيط المكتبات والمتاحف وسرقة كنوز هذا البلد التي تشهد على عراقة حضارته.

والواقع أن ما يثير الاستغراب هو وقوف بعض المنظرين إلى جانب هذه السياسات الرامية إلى السيطرة والعداء للثقافات الأخرى تحت غطاء صراع الحضارات أحيانا ومحاربة الإرهاب أحيانا أخرى. وهذا ما يفصح عنه برنار لويس الذي يسعى إلى ترويج فكرة مجاربة الخطر الإسلامي.(3) وقد عبر عن هذا الموقف الكثير من الزعماء السياسيين، فالرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون أعلن أن المعرفة هي أكثر من أي وقت مضى سلطة فالدولة التي ستزعم ثورة الإعلام هي التي ستكون قوية بين الدول... وأن هذه الدولة هي الولايات المتحدة الأمريكية... هذه السلطة اللامادية ستمكنا من التحكم في العلاقات الدولية بالجذب لا بالقوة، وبالتالي فلا مجال لتحمل أعباء عسكرية جديدة. وقبله قال نيكسون: "أمريكا ليست استعمارية ولا تريد أراضي إنها تريد اقتراح نط تفكير"(4)

وعلى الرغم من أن الخطاب الذي تنتجه وسائل الاتصال الحالية يبدو أقل تقليدية من ذلك الذي أرسته الامبراطوريات الاستعمارية القديمة، لكنه في الحقيقة لا يقل في قدرته على تحديد المعايير المادية والثقافية التي يعيش عليها الآن الجزء الأكبر من العالم. وقد أدرك البعض خطورة تأثير وسائل الاتصال في تكريس الهيمنة، وهذا ما عبر عنه الباحث والكوت قائلًا:



"من الواقع إلى الخيال" من الجوهرى إلى غير الجوهرى، إننا نؤمن بالصور التي تنسخ ذاتنا أكثر من إيماننا بذواتنا. وسنظل كذلك حتى يفقد كل شئ حي قداسته، ويتحول بالكامل إلى صور. وهذه هي الصورة التي يصنعها المعيار الذي يحكم عقيدتنا مقولة: "شاهدتها في التلفزيون" (5)

ويظهر اهتمام الدول الكبرى بوسائل الإعلام والاتصال من خلال الأهمية التي يولونها للصناعات الثقافية التي أصبحت عند البعض خاصة الأمريكيين وسيلة لزيادة هيمنتهم الاقتصادية والسياسية. ويبدو هذا واضحا في وسائل الاتصال الحاملة للإنتاج الثقافي، فهم يريدون أن يجعلوا من الإعلام والمعرفة عاملين أساسيين في الإنتاج، وبالتحديد نظاما جديدا من السلطة ووسيلة من وسائل الحكم تتجاوز اعتبار الاتصال والثقافة بمثابة رسائل، بل وفي نفس الوقت مجموعة أفكار وتكنولوجيات وممارسات وقوانين ومؤسسات وموازين قوى.

وقد أدى تطور ما يسمى بالقرية الكونية على مدار العقود الماضية إلى توسيع أشكال الهيمنة. وعلى الرغم من عدم قدرة الكثير من المواطنين في الدول النامية السفر، مثلما هو الحال بالنسبة للغربيين، إلا أن الإعلام يتيح لهم الفرصة المناسبة للقيام بالرحلات شبه الحقيقية من خلال ما تبثه وسائل الإعلام والتي تشكل تمثيلات انتقائية للدول أو الثقافات المختلفة التي يتم ابتناعها بشكل حريص لاستهلاك المتفرج الغربي، ولا يستثنى الإعلام الإخباري من هذه الممارسة، بل وقد تكون تمثيلاته أكثر مراوغة لأنه يقدم أخباره باعتبارها حقائق آتية وقادمة من أماكنها الفعلية ومعبرة عن موقف أو حدث. (6)

وتتعدد أشكال الهيمنة وتنوع بحيث أصبحت تشمل الأنظمة التعليمية التي تقدم بعضها الثقافة الغربية، وتعمل على تكريسها بتزكية من القادة المحليين الذين هم أشبه بالدمى تتحكم فيهم القوى العالمية. وهكذا يمكن القول إن الهيمنة تميل إلى المراوغة وتبدو أكثر مرونة من السيطرة الصريحة، ذلك أن الهيمنة التي تنطوي عليها الامبريالية الجديدة غالبا ما تخفى في صورة معونة، أو مشورة، أو الدعم غير المنحاز، ويبرز في هذا الإطار مفهوم "المسؤولية العالمية" الذي يتم استخدامه لتمرير كافة أشكال النشاط الامبريالي الجديد. بما ذلك التدخلات العسكرية العديدة للولايات المتحدة الأمريكية في هيمنتها على الدول الفقيرة آخرها الغزو الأمريكي البريطاني للعراق.

ولعل أخطر نتائج هذه الهيمنة تلك التي أصبحت قادرة على تصدير القيم الثقافية الغربية إلى مجتمعات العالم الثالث. وقد أدى هذا إلى تكريس واقعا جديدا يفرض نمطا معيناً من

الحياة على الإنسان المعاصر أينما وجد، يتمثل في النموذج الاجتماعي الثقافي الغربي والأمريكي بالخصوص المحسد في التفوق التكنولوجي في ميدان وسائل الاتصال والذي يشكل أساس الهيمنة الثقافية، خاصة وأن وسائل الاتصال في الولايات المتحدة الأمريكية هي مشروعات تجارية ثقافية وهذا على حد قول جورج جرنبر الذي اعتبرها بمثابة "الذراع الثقافية للصناعة الأمريكية". لقد تعدت هيمنة أمريكا تصنيع وتصدير تكنولوجيا الاتصال إلى تشكيل وهيكله أنماط البرامج التي تبث عبر هذه الوسائل. وهذا ما يفصح عنه صراحة مدير شركة الكومبيوتر "ميكرو سيستمز" جون جيج John gage الذي قال: "بمستطاع كل فرد أن يعمل لدينا المدة التي تناسب، إننا لا نحتاج إلى الحصول على تأشيرات السفر للعاملين لدينا من الأجانب". لأن الحكومات لم تعد لها أهمية في عالم العمل. ويضيف: "إننا نتعاقد مع العاملين لدينا بواسطة الكومبيوتر، وهم يعملون لدينا بالكومبيوتر ويتردون من العمل بواسطة الكومبيوتر أيضا".

ويلعل مايكل أيزنر Michael Eisner رئيس مجلس إدارة شركة "والت دزني" هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية في مجال الصناعات الثقافية قائلا: " تتميز وسائل التسلية الأمريكية بالتنوع، وهي بهذا تتلاءم مع الإمكانيات والخيارات وطرق التعبير الفردية المختلفة، وهذا هو في الواقع ما يرغب به الأفراد في كل مكان". ويضيف: "وكتيجة للحرية الواسعة المتاحة أمام كل من يريد الابتكار، تتصف صناعة التسلية الأمريكية بأصالة لا مثيل لها في العالم أبدا".

ويرد بنجامين برابار Benjamin barber على مزاعم مايكل أيزنر ويصف تفسيره لتفوق ما تقدمه والت دزني بتنوع وسائل التسلية الأمريكية بـ "الكذب والنفاق". ويرى أن هذه الأسطورة تتناسى أمرين حاسمين: طريقة الاختيار وحرية الإنسان في تحديد ما هو بحاجة إليه فعلا. إذ كيف يستطيع المرء أن يأخذ مأخذ الجدل المقولة القائلة بأن السوق لا تقدم إلا ما يرغب به الأفراد، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن ميزانية صناعة الدعاية والإعلان قد بلغت 250 مليار دولار.

ويعتقد بنجامين أن سبب نجاح "استعمار ولت دزني للثقافة العالمية" تكمن في اتباع ظاهرة قديمة قدم الحضارة، إنها المنافسة بين الشاق والسهل، بين البطيء والسريع، بين المعقد

والبسيط، فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار. أما كل ثان من هذه الأزواج فإنه يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إن دزني ومكدونالد و MTV تروج لما هو سهل وسريع وبسيط". (7)

إن التفاوت الكبير بين الدول المتقدمة والدول النامية في مجال السيطرة على وسائل الاتصال، يتبعه تفاوت داخل البلد الواحد، إذ تشهد العقود الأخيرة تركز وسائل الاتصال في أيدي عدد قليل من المالكين. ففي الولايات المتحدة الأمريكية تقيم حوالي خمسين شركة متعددة الجنسيات علاقات مع المؤسسات الإعلامية قائمة على المصالح المالية، مما جعلها تراقب سوق الإعلام. وفي غياب آليات المراقبة فإن هيمنة هذه المؤسسات ما انفكت تتسع وتؤثر على الخدمة العمومية التي هي إحدى وظائف الإعلام. وبالتالي توجه نشاط المؤسسات الإعلامية نحو عالم المال والأعمال على حساب الإعلام الجاد. ومن جهة أخرى فإن هذه المؤسسات ترتبط ببعض الدوائر السياسية، فخلال الفترة الممتدة من 1993 إلى 2000 منحت الصناعة الإعلامية 75 مليون دولار لتمويل الحملات الانتخابية. وأصبحت وسائل الإعلام تتدخل في نشاطات أخرى اقتصادية وسياسية وعسكرية.

وتشهد الولايات المتحدة الأمريكية تركز وسائل الإعلام في أيدي الاحتكارات الكبرى، ففي مجال الإعلام المسموع تراجع عدد المالكين لهذه الوسائل إلى 25 % من 1999 إلى 2001، فالتجمع الأساسي Westinghouse يمتلك 85 محطة إذاعية، في حين يمتلك تجمع Channel Clear لوحده 1202 محطة. وقد انعكس كل هذا على محتوى البرامج التي تبثها هذه المحطات، بحيث لا يمكن التمييز بين محطة وأخرى، وألغى التنوع الثقافي الذي ما انفك الأمريكيون يطالبون به. ولم تنجو من هذا التوجه شبكات الأنترنت، ففي 1999 كانت 110 شركة تقتسم حوالي 60% من وقت المستعملين، أما في 2001 فتقلص هذا العدد ليصل إلى 14 مؤسسة تنفرد بهذا الوقت. (8)

التبادل الثقافي: الوحدة / الاختلاف

إن الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، كما أن المجتمع لا يوجد إلا بالثقافة، وتعتبر الثقافة قاسماً مشتركاً بين كل المجتمعات لكنها تتفق وتختلف في آن واحد، فهي تساعد على

التمييز بين فرد وآخر وبين جماعة وأخرى، وبين مجتمع وآخر، بل إن الثقافة هي التي تميز الإنسان عن غيره من الأجناس، لأن الثقافة هي التي تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري. وفي هذا الصدد يرى كاردر أن كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية أساسية، وذهب إلى حد القول: "الأنا هي ترسب ثقافي" (9).

لقد تواكبت على مر التاريخ حضارات كان لكل منها امتدادها الزمني واتساعها الجغرافي، وميزاتها وأشكالها الخاصة بها. وكان لكل حضارة خصائصها وآثارها الخاصة بها. لكن هذا لا يعني أن الصفة الغالبة في علاقة الحضارات ببعضها البعض هي الانعزال أو الانغلاق، وإنما كل حضارة كانت تتفاعل مع سابقتها وتمثل مرحلة من مراحل التقدم الإنساني. ذلك أن الحضارات مهما كانت مصادرها وورقتها الجغرافية، فإنها تتواصل وتتفاعل وتتبادل. وبهذا التبادل يتكون المجتمع وتنشأ حضارته وتزدهر وتثمر.

إن التفاعل مع الغرب هو قضية قديمة وحديثة في آن واحد. فمنذ التقاء الحضارة العربية الإسلامية بالغرب في القرن الثامن عشر، أي منذ الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر وهي قائمة على الهيمنة. حتى علماءهم يقرون بالهيمنة ويعد سامويل هانتجتون أحد هؤلاء المنظرين للتفاوت الثقافي والحضاري بين الشعوب، الذي يذهب إلى حد اعتبار الحضارة تقتصر على الغرب، لأن الشعوب الأخرى عاجزة في نظره عن استيعاب قيم وثقافة الغرب المعاصرة، وينفي أن الحضارة لها بعد إنساني تشارك فيه كل الشعوب والمناطق. (10)

وعلى الرغم من التباين والتمايز الذي يظهر بين المجتمعات البشرية، على اعتبار أن كل مجتمع يبني ثقافته وينتجها على نحو خاص به، مكانيا وزمانيا، ويكتسب خصوصية من بيئته ومحيطه، فإن هذه الثقافة تتسم بخاصية أساسية هي قابليتها للتنوع والثراء والتعدد، ذلك أن التواصل بين الثقافات المختلفة أمر له أهميته. والمجتمع بطبيعته له قابلية للتنوع والتغير، وهذا ما أدى إلى تباين أشكال الحياة وصور التعبير عنها. كما أن التباين بين المجتمعات في أسلوب الحياة لا يشكل خطرا بل عاملا مساعدا على التفاعل بين مختلف المجتمعات والثقافات. وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف الهندي رادها كريشان: "إذا ما تعالينا عن

مظاهر الاختلاف بين المعتقدات والثقافات، فسنجدها جميعا واحدة، لأن الإنسانية في جوهرها واحدة، وإن تنوعت وتعددت ثقافتها". (11)

والواقع أن التبادل الثقافي بين المجتمعات ليس جديدا، فقد كانت الثقافات في اتصال دائم قائم على الأخذ والعطاء. لكن التبادل الثقافي الذي يطرحه بعض المنظرين الغربيين يتعذر تحقيقه في ظل التفاوت الكبير بين الدول المتقدمة والدول النامية، وهذا بالرغم من التطور الذي شهدته وسائل الاتصال التي حولت العالم إلى قرية صغيرة. ذلك أن تطبيق مفهوم التبادل الثقافي يختلف في بلاد فقيرة نامية، عنه في الدول المتقدمة تقنيا، حيث نما التبادل الثقافي كفلسفة وكتجارة في ظل الليبرالية والاقتصاد الرأسمالي القائم على تعميم السوق المفتوح في كل دول العالم. وقد أشار الناقد الأمريكي فريدريك جيمسون F. Jameson في أواسط السبعينيات إلى الرأسمالية بوصفها "أول ثقافة عالمية حقيقية لم تتخل يوما عن مسعاها إلى امتصاص كل غريب" (Beyond the cave).

ولعل السؤال الذي يمكن أن يطرح هنا، هل يمكن الحديث عن التبادل الثقافي في ظل هذا التفاوت الصارخ بين طرفي المعادلة (الدول المتقدمة والدول النامية)، وفي ظل أيضا النظرة المتعالية للغرب للشعوب الضعيفة. وفي هذا المجال يعد الاستشراق واحدا من أكثر الخطابات التي رسخت هذه النظرة الخاطئة للشرق. حيث تزعم أن الشرقي كسول وقذر وفاسد وخائن وأحمق ومتخلف وصامت في كثير من الأحيان. على عكس الإنسان الغربي المتحضر والمسيطر على نواذعه الجنسية. والواقع أن الوظيفة الأساسية للاستشراق هي ترسيخ الهوية الأوروبية، وذلك بخلق "آخر" يكون بمثابة نقيض للغرب في صورته، فكرته وشخصيته وتجربته. وتستمر عملية استثمار صيغة الشرق/ الغرب والتي تنطوي على دوال محددة سلفا في سينما هوليوود وأشكال الثقافة الشعبية الأخرى، فضلا عن الإعلام الإخباري. هذه النظرة الخاصة إلى الشرق نجدها حتى عند السياسيين. وهذا ما نستشفه أثناء العدوان العسكري على العراق في 1991 حين استخدم الرئيس جورج بوش البلاغة في وصف الرئيس العراقي وذلك بالتركيز على المقطع الأول من اسم صدام Saddam

(بدلاً من الثاني) استدعى السادية Sadisme التي يتم ربطها كثيراً بالشرق باعتبارها مجالا دلاليًا معبراً عن الانحلال الجنسي والفساد السلوكي (12)

وهل يمكن تحقيق التبادل الثقافي في ظل نظرة الغرب المتعالية الذي يعتبر نفسه المركز، والذي ما انفك يعززه الباحثون الغربيون باستمرار، وهذا ما يؤكد جوتام داسجوبنا G. dasgupna عندما يصرّح "نحن العالم".

إن هذا المفهوم المتعالي الذي يرى في الولايات المتحدة الأمريكية هي العالم تركزه أعمالهم الفنية، ويمكن ملاحظة ذلك في أغنية تحمل عنوان: "نحن العالم نحن الأطفال" (we are the world we are the children) التي ظهرت في أوائل الثمانينيات وشارك فيها نجوم الغناء الأمريكيين وعلى رأسهم مايكل جاكسون. وعلى الرغم من أن هذه الأغنية وإن كانت توحى في الظاهر بأنها تهدف لجمع التبرعات لأطفال إفريقيا، إلا أنها في الحقيقة تعيد ترسيخ الامتياز/القوة الأمريكية من خلال التأكيد على قدرة الغرب على أداء الأعمال الصالحة.

أما بخصوص العناية التي يوليها الباحثون الغربيون لثقافة الشعوب الأخرى خاصة الشرقية، في إطار مشروع "التبادل الثقافي"، فإنه يمكن القول إن المشروع الأميركي يرمي في الواقع إلى احتواء الثقافات الأخرى بغرض السيطرة عليها. وهذا ما يفصح عنه صراحة بعض الباحثين الغربيين الذين ينظرون إلى الشرق باعتباره غريباً Exotique. فقد عمد بعضهم إلى تبني الأشكال والأساليب الفنية الخاصة بالثقافات الأخرى واستخدامها داخل السياق الغربي. إلا أن المقاربة الأنثروبولوجية لدراسة هذه الأشكال مثل تلك التي تبناها كل من فيكتور تيرنر V. Turner ويوجينيو باربا Barba وريتشارد شيشنر R. schechner، صممت خصيصاً لإبراز المشابهات بين كل الثقافات دون اعتبار للاختلافات شديدة التباين بين هذه الثقافات.

ويذهب بعض مروجي هذه الأفكار الذين ينظرون للعملة الثقافية أنه يمكن توجيه خطاب نقدي موحد للقراء من مختلف أنحاء العالم لأنه ينطوي على حد زعمهم على مبادئ حياتية كونية. والنصوص التي تعكس مثل هذه "الحقائق الكونية" عادة ما يكون قد

تم نزعها من سياقها الاجتماعي والتاريخي. وفي هذا الصدد يرى أنولودا كابور Anuradha kapur . إن هذه المقاربات هي نتيجة من نتائج ما بعد الحداثة: "عندما تبني ما بعد الحداثة المحكوم على مفهوم المحاكاة Mimesis فإنها بذلك تبني الصيغ والأشكال غير المحاكاتية من كافة أنحاء العالم، من خلال احتياجات واستخدامات ما بعد الحداثة، وهو ما يعني تفريغ الصيغ النابعة من سياقات ثقافية مختلفة من محتواها والنظر إليها باعتبارها سلسلة من الخيارات الشكلية.

ومن جهته يهاجم روستم باروشا Rostoom.b هؤلاء المنظرين الذين يحثون عن مادة ثقافية خام، شأنا شأن الشركات المتعددة الجنسية التي تستغل المواد الخام والعمالة الرخيصة في العالم النامي متجاهلة ما قد يتعرض له السكان المحليون من تلويث لأرضهم وحرمانهم من الأمن والأمان.(13)

والواقع أن ما يهم القائمين على التبادل الثقافي ليس تراثنا، وإنما تقاليدنا التي يستنبطون منها خامات لتغذية رؤاهم ونظرياتهم ومصادرهم. ذلك أن السعي إلى تجريد الثقافة من تاريخها هو الإشكالية الكبرى في مجال التبادل الثقافي. ويعد شيشنر نموذجاً حياً لهذا الاتجاه الذي يجرد ثقافة الشرق من تاريخها الطويل، فبدلاً من قبول الحدود التي تخلقها الأمم فإنه يدعو إلى قيام نظام "عالمي للمعلومات" وشبكات الاتصالات بين البشر توفر كل ثقافات البشرية وتجسدها بحيث يختار الإنسان الثقافة التي تروق له. ويذهب شيشنر إلى حد اعتقاد أنه بإمكان الناس اختيار ثقافات معينة بنفس طريقة اختيارهم للطعام الذي يأكلونه الآن. وعلى الرغم من أنه يقر بأن هذا الاختيار قد لا يكون متوافراً لكل الناس خاصة بالنسبة للفقراء، فهو يصر رغم ذلك على ضرورة تعريض الأطفال (بعد سنة أو سنتين أو ثلاثة) إلى ثقافات متعددة أخرى تختلف عن الثقافة التي ولدوا فيها حتى يستطيعوا السمو فوق حدود ثقافتهم وشروطهم.

ومن هنا فإن الاهتمام بالتراث الثقافي التقليدي للشعوب من قبل الغرب هو الولع الشديد بالتقنيات. وهذا ما يظهر في المقاربة التي يروجها شيشنر حيث يسعى إلى تجميد السياق أو المعنى لطقس معين بالتركيز على الحركات البدنية التي يطلّبها. وعندما تنتزع

طقس من الطقوس من حالته الأصلية واستغلاله في أعمال فنية غريبة، فإن الهدف من وراء ذلك هو العثور على معنى مماثل لهذا الطقس في السياق الأمريكي. ويرر شيشنر هذا الاختيار قائلاً : "إنني لم أقصد المعنى ولكني قصدت النشاط البدني، يجب أن تذهب إلى بلد آخر لرؤية نفسك بأسلوب أوضح". يؤكد شيشنر وجود توازي بين الثقافات المختلفة وهذا ما جعله يقر بشدة استخدام الطقوس من الثقافات المختلفة في المسرح قائلاً: "إن الفروق بين الثقافات ليست خطيرة ... إن الفارق بينهم وبيننا ليس كبيراً". (14)

لكن استخدام طقوس أجنبية بدون معرفة معناها هو مخاطرة تؤدي إلى التبسيط المخل والتواء المعنى. ويبدو من تصريح شيشنر أن تاريخنا ليس مهماً بالنسبة للمهتمين بالتبادل الثقافي، بل إن الأهم من كل ذلك هي تقاليدنا وماضينا الذي وجدوا فيه بعض الاكتشافات، خاصة عندما تكون ذات طابع صوفي. ويمكن ملاحظة نفس هذا الاهتمام عند الفنانين الفرنسيين عادة احتلال الجزائر، حيث أبدى المخرج المسرحي أنتونين آرتو إعجابه ببعض مظاهر الثقافة الشعبية، خاصة حفلات العيساوة العريقة في الشرق الجزائري. فأخذ منها مظهرها الشكلي وبلور منها صيغة مسرحية أطلق عليها "مسرح القسوة". لكن المتمعن في هذا الشكل سيجد أن آرتو وظف جانب القسوة التي كان يعاني منها المؤدون في لعبة العيساوة، ولم يراع الجوانب الأخرى الاجتماعية والدينية والصوفية التي يَحْتَرِّمُها هذا التقليد. والأمثلة كثيرة على تسخير التراث الشعبي الجزائري في أعمال فنية غريبة خاصة في السنوات الأخيرة، حيث تم التركيز بشكل أساسي على أغنية "الراي" التي انتزعت من سياقها الجغرافي والتاريخي، ولعل المثال الصارخ ما عرفته حكاية الشيخ الجيلالي المعروفة في الوجدان الشعبي الجزائري، والتي حولها الشاب خالد إلى أغنية عصرية خفيفة بعنوان "عبد القادر يا بوعلام" والتي أصبحت مجرد صراخ وزعيق يؤديها المغنون الثلاث فوق منصات غريبة دون معنى أو هدف.

تكمُن الخطورة هنا في الفصل بين تاريخ الشعوب وثقافتها، أي إفراغها من جمالها الفلسفي وسياقها الاجتماعي، والأسوأ من ذلك أنه يجرّد الأداء التقليدي من علاقته بحياة الشعب الذي تقدم هذه الثقافة من أجله. وهنا يجب التأكيد على مسألة في غاية الأهمية في تعامل الغرب مع الأشكال الثقافية التراثية للشعوب المستضعفة. ذلك أن أكثر الأشياء إهانة

لتراث الشعوب هو تحويل احتفالاته إلى مستودعات من التقنيات والنظريات وبضاعة تنقل إلى مختلف بقاع العالم. (15)

أما بخصوص المشاركين في الكثير من الأشكال الفنية في إطار التبادل الثقافي في الحقيقة لا يودون وفق الطقوس والتقاليد، وإنما يودون عروضهم للسواح ويحصلون على أجر مقابل ذلك، وفي بعض الأحيان لا يحصلوا على شيء إطلاقاً، خاصة وأنه لا توجد حقوق الطبع على العروض التقليدية، ولهذا فإن الكثير منه قد صوّر على شرائط فيديو بدون أي تصريح وهذا ما جعله عرضة للنهب والقرصنة. وعندما يستخدم المال في مجال التبادل الثقافي فإنه يصبح تبادلاً اقتصادياً، وليس تبادلاً ثقافياً، وتتجلى سطوة المال بصورة بشعة في المجتمعات الفقيرة، حيث يقدم الأجانب المال الذي يتحكمون به في التبادل الثقافي.

وإذا كان هذا هو رأي بعض المثقفين الغربيين في مسألة التبادل الثقافي، فإنها في نظر المثقفين عندنا غير متجانسة، ويمكن تقسيمه إلى صنفين أساسيين: الأول يمثل المثقفون الذين يتبنون الخطاب الغربي، ويؤمنون بعالمية العالم والمعرفة والتكنولوجيا ولا وجود في نظرهم لغزو ثقافي. ويبدو أن هؤلاء المثقفين يفكرون بأدوات الآخر ويتكلمون بمنطق الآخر ويفسرون الظواهر بمصطلحات الآخر. وهؤلاء يسميهم محمد عابد الجابري "المثقفون اللقطاء" كونهم لا يشاركون الأمة همومها بحكم انغماسهم في نخط الحياة الاستهلاكية وانصرافهم شبه التام عن دورهم الثقيفي باستثناء اهتمامهم بالثقافة المحققة للعيش الرغيد، وهي في الحقيقة ثقافة التضييل المعرفي الذي يخفي الحقائق عن الناس.

أما الرأي الثاني فيمثل المثقفون الذين يسعون إلى معالجة المسألة الثقافية من منظور الصراع الثقافي والحضاري. ويبدو أنهم أكثر التزاماً بمهم شعبيهم ولا يؤمنون بعالمية الثقافة، وي طرحون المسألة الثقافية في ارتباط وثيق بمسألة الخصوصية والهوية، مدركين أن الغزو الثقافي إنما يستهدف اختراق الهوية الثقافية للأمم والشعوب ويطال المنظومات المكونة لثقافتها: التفكير والتمثلات والقيم والتعبير والسلوك (16)

إن الوضع الراهن الذي يمر به عالم اليوم يفرض علينا التمسك بالثقافة الوطنية وتعزيز هويتنا بكل إبعادها. ثقافة تصون الشخصية الوطنية من وطأة الذوبان في القوالب والأنماط العالمية التي تحاول فرضها علينا تكنولوجيا الاتصال والمعلومات المعاصرة. إن ما نحتاجه اليوم

هو الوعي بذاتنا وإدراك أهمية ما لدينا من ثقافة وتراث وقهم وإبداع. ولا سبيل أمامنا إلا تجاوز الوضع الراهن الذي يكرس ثقافة القول والانتظار والنقل والنسخ، والاعتماد على ثقافة العمل والمبادرة والعقل والإبداع، وتجاوز ثقافة مجتمع عصر الزراعة/البداوة وتبني ثقافة مجتمع ما بعد الصناعة/المدينة. والسعي كذلك إلى ربط ثقافة الإنسانيات بثقافة الطبيعيات، لأنه لا يمكن تحقيق إبداع في مجال العلوم دون إبداع في مجال الفنون.

أما على الصعيد الخارجي فإن تجاوز هذا الوضع لا يكون عبر إغلاق الأبواب أمام العلم والمعرفة والتكنولوجيا، لأن هذا موقف سلبي، فضلا عن أننا لا نستطيع فعل ذلك حتى ولو حاولنا. ومن هنا فإن المواجهة الحقيقية للغرب تمر عبر وضع ما يسميه الجابري "استراتيجية ثقافية في مستوى العصر" هي وحدها الكفيلة على مواجهة الاختراق الثقافي بشكل فعال والقادرة على تجاوز الانشطار الثقافي في واقعنا نحو نوع من النهضة الثقافية الشاملة، والاستعداد للانفتاح والإسهام في حضارة الألفية الثالثة.

ومن هنا فلا مناص للمثقفين والباحثين إلا المشاركة الفعالة في صياغة عالم المستقبل عن طريق المتابعة النقدية للحوار الفكري في العالم، ليس فقط من أجل أن نعيش روح العصر، ولكن بهدف محدد هو الإسهام في تشكيل النظام العالمي الجديد، من خلال صياغة مبادرات خلاقية في مجالات التنمية والسلام العالمي والديمقراطية وحوار الحضارات، حتى نواكب تحولات العالم من انحسار المواجهة إلى تنامي التعاون. (17)

وخلاصة القول إذا كان علينا أن نتبنى فكرة التبادل الثقافي، فنحن نحتاج أن نضع أبحاثنا في سياق تاريخنا لأننا نحمل ثقافتنا داخل أنفسنا وليس خارجه. والبدائية تكون بالشروع بتحديد لأنفسنا أولا علاقاتنا مع ثقافات العالم الأخرى. ويتطلب ذلك أن تسلم بالوعي وأن نشرك الأمة بكاملها في هذا المشروع. ولعل القول المأثور للزعيم الماهاتما غاندي يلخص إشكالية التبادل الثقافي حيث قال: " لا أريد ليبي أن تحجبه الأسوار من كل حذب وصوب، ولا أريد أن تغلق نوافذه فيفسد الهواء، بل أريد أن يغمر بيتي العبق الأصيل لكل ثقافات الدنيا وينتشر في حرية بقدر ما يتيسر ذلك، ولكنني في نفس الوقت أرفض وبشدة أن تنتزعي ثقافات الآخرين من جذوري وتلقي به بعيدا عن رحاب بيتي".

الهوامش:

- 1- عدنان عباس علي مقدمة منشورة في فسخ العولمة تأليف هانس بيتر مارتين، هارالد شومان، ترجمة عدنان عباس علي، الكويت: عالم المعرفة، 1998 ص 10
- 2- ميجان الرويلي وسعيد البازعي، دليل الناقد الأدبي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000 ص ص 122-125
- 3- Edward Said, L humanisme, dernier rempart contre la barbarie, in le Monde diplomatique, septembre 2003
- 4- يحيى اليحيوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، بيروت: دار الطليعة، ط 1، 2002 ص 171
- 5- هيلين جيلبرت، جوان تومكيو، الدراما ما بعد الكولونيالية، ترجمة سامح فكري، القاهرة: وزارة الثقافة 1998 ص 393
- 6- المرجع نفسه ص 400
- 7- هانس بيتر مارتين، هارالد شومان، المرجع السابق ص ص 24-45
- 8- Eric klinenberg, dix maîtres pour les médias américains, le monde diplomatique n 589 avril 2003
- 9- ر. بودون وف. بوريكو، المعجم النقدي لعم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 228
- 10- هالة مصطفى، الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 2002، ص 15
- 11- مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافة البشرية: نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقي جلال، الكويت: عالم المعرفة 1998 ص 15
- 12- هيلين جيلبرت، جوان تومكيو، المرجع السابق ص 361
- 13- المرجع نفسه ص ص 14-16
- 14- روستم هاروشا، الأداء وفن السياسة الثقافية، ترجمة أمين حسين الرباط، القاهرة: أكاديمية الفنون، ب ت ص 34
- 15- المرجع نفسه ص 43
- 16- يحيى اليحيوي، في العولمة والتكنولوجيا الثقافية، بيروت: دار الطليعة ص 44
- 17- السيد ياسين، الثورة المعرفية المعاصرة: حركة ما بعد الحداثة، منشور في فريديريك جيسمون، التحول الثقافي، ترجمة محمد الجندي، القاهرة: أكاديمية الفنون، 2000، ص 16